

سُورَةُ الصَّفِّ

مِنْ تَسْبِيحِ الْوُجُودِ إِلَى بَنِيَانِ الْقُلُوبِ



تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الصَّافِّ

من تسبيح الوجود إلى ببيان القلوب



تأليف : رَدَّاد السَّالَامِيُّ

ثمّة سورٌ تدخل إلى القلب من باب الرجاء، وثمّة سورٌ توقظه بصوت القيامة، وثمّة سورٌ تأخذه إلى آفاق الخلق ليرى آثار القدرة والحكمة، أمّا سورة الصف فتدخل إليه من الباب الذي كثيراً ما يهرب منه الإنسان: باب المطابقة بين ما يقوله وما يفعله، وبين الصورة التي يعرضها للناس والحقيقة التي يقف بها بين يدي الله. إنّها سورة قصيرة في عدد آياتها، ولكنها شديدة الامتداد في ضمير المؤمن؛ لأنّها لا تسأله عمّا يعرف فحسب، بل عمّا صنع بما عرف، ولا تسأله عمّا قال فقط، بل عمّا صدّقه جوارحه من قوله، ولا تكتفي بأن تضع أمامه جمال الإيمان، بل تحمله إلى ميدان الوفاء بتكليفه، حيث تصبح العقيدة موقفاً، والكلمة عهداً، والمحبة نصرة، والصفّ بنياناً، والتجارة بذلاً، والنصر أمانةً قبل أن يكون غنيمة.

تبدأ السورة والكون كلّهُ في تسبيح، كأنّ الوجود قد انتظم قبل الإنسان في صفّ عظيم لا فرجة فيه ولا اضطراب، ثمّ يلتفت إلى المؤمنين ليقال لهم: كيف يشدّ قولكم عن فعلكم، وكيف تضطرب صفوف قلوبكم والكون من حولكم قائم في طاعة ربّه؟ ثمّ تمضي السورة فتستحضر موسى عليه السلام وهو يؤذّي من قوم يعلّون صدقه، وتستحضر عيسى عليه السلام وهو يقيم جسر البشارة بين رسالات الله، ثمّ تكشف سنخف من يريد إطفاء نور الله بفمه، وتعلن أنّ هذا النور ماضٍ إلى تمامه مهما كره الكافرون. وبعد أن تعرض جراح الرسالات القديمة، تنتقل إلى الرسالة الخاتمة، فتفتح للإنسان باب أعظم تجارة يمكن أن يعقدها في حياته: إيمان وجهاد، ومغفرة وجنات، ونصر قريب، ثمّ تختتم ببناء النصر، كأنّ السورة تقول إن الإيمان لا يكتمل في خزائن القلب المغلقة، بل لا بد أن يخرج إلى العالم عملاً، ووفاءً، وتناصراً، واصطفافاً مع الحق.

ومن أول آية إلى آخر آية تتحرك السورة في اتجاه واحد: من التشتت إلى الصف، ومن الدعوى إلى البرهان، ومن حبّ النفس إلى بذلها، ومن الخوف على المصالح إلى التجارة مع الله، ومن مراقبة قوة الباطل إلى اليقين بأن نور الله لا تطفئه الأفواه، ومن انتظار من ينصر الدين إلى سؤال النفس: هل أكون أنا من أنصار الله؟ وهكذا لا تترك السورة قارئها كما وجدته؛ لأنّها لا تسمح له أن يقف متفرجاً خارج المشهد، بل تسجبه برفق مهيب إلى داخله، حتى يسمع النداء موجّهاً إليه، ويرى موضعه في الصف، ويزن صدق قوله بعمله، ويسأل نفسه في خوف ورجاء: أنا كلمة جميلة لم تتحول إلى حياة، أم لبنة صادقة في بنيان يحبه الله؟

الآية الأولى: الوجود الذي لا يخرج عن مقام العبودية
﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

تفتتح السورة بهذا المشهد الكوني الواسع، فلا تبدأ بالإنسان ولا بمشكلاته ولا بتناقضاته، بل ترفعه أولاً فوق ضيق ذاته ليرى الوجود كله في حال تسبيح. ما في السماوات وما في الأرض، ذلك العموم الذي لا يترك مخلوقاً خارج دائرة العبودية، قد نزه الله وخضع لجلاله وشهد بكّاله، كلُّ بلسانه الذي علّمه الله، وبحال وجوده التي تدل عليه، وبالنظام الذي أودعه فيه. النجوم في أفلاكها تسبح حين لا تتمرد على مداراتها، والشمس تسبح حين تشرق بالمقدار الذي قُدّر لها، والبحار تسبح حين تحمل في أعماقها قوانين لا تختل، والشجرة تسبح حين تصعد بالماء من قرار الأرض إلى أطراف الورق، والذرة تسبح حين تحفظ سرّ بنائها، والملائكة تسبح طاعةً واختياراً، وكل مخلوق يؤدي وظيفته في النسيج الكوني شاهداً على أنّ هذا العالم ليس فوضى عمياء، بل مملكة محكمة تفيض فيها آثار العزيز الحكيم.

وفي الفعل الماضي ﴿سَبَّحَ﴾ إحياء بالثبوت والتحقيق؛ فالتسبيح ليس طارئاً في الوجود، ولا نعمة عابرة تمرّ به ثم تسكن، بل هو حقيقة مستقرة في أصل بئانه، ممتدة في تاريخه، ملازمة لوجوده. وقبل أن يسمع المؤمن العتاب الآتي: ﴿لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، يُريهِ الله كوناً لا تتناقض دلالته مع حركته، ولا تقول نجومه شيئاً ثم تفعل نقيضه، ولا تعلن أفلاكه الخضوع ثم تنقض نظامها؛ فكأن التسبيح الكوني مقدمة أخلاقية للصدق الإنساني، وكأن الله يضع الإنسان أمام مرآة الوجود: إنَّ العالم من حولك صادق في عبوديته، فكيف تكون أنت المخلوق المكرّم موضع الانقسام بين اللسان والعمل؟ إنَّ فساد الإنسان يبدأ حين يخرج من هذا الانسجام العظيم، فيصبح قوله في جهة وفعله في جهة، وإيمانه المعلن في ناحية ومصلحه الحاكمة في ناحية أخرى، بينما التسبيح الحق يجمع الكائن على وجهة واحدة، فلا يبقى فيه جزء يعلن لله ما تنفضه بقية أجزائه.

ثم تختم الآية بالاسمين الجليلين: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فتمنح التسبيح معناه الكامل. هو العزيز الذي لا يحتاج إلى تسبيح الخلق ليرتفع، ولا تنقصه معصية العاصين، ولا تزيد في ملكه طاعة المطيعين؛ إنما تسبّح الموجودات لأنها أدركت، بطريقتها التي ألهمها الله، أنَّ العزة له وحده، وأن كل قوة سواه عارية مستردة، وكل سلطان دونه مؤقت زائل. وهو الحكيم الذي لم يخلق شيئاً عبثاً، ولم يضع موجوداً في غير موضعه، ولم يشرع لعباده أمراً إلا وفيه صلاح أرواحهم وعمران حياتهم، وإن قصرت عقولهم عن إدراك تمام حكمته. وحين يقترن العزّ بالحكمة تزول من القلب أوهام كثيرة؛ فعزته ليست بطشاً مجرداً من الحكمة، وحكمته ليست معنى لطيفاً بلا قدرة تنفذه، بل هو غالب لا يُغلب، حكيم لا يظلم، نافذ الأمر لا يضع شيئاً إلا في موضعه.

لهذا تبدأ رحلة الصفّ من معرفة الله، لا من تنظيم الناس وحده؛ لأن الصفوف لا تستقيم بالتعليمات المجردة ما لم تنتظم القلوب حول تعظيم واحد. وما تنازع الناس إلا حين عظمت في نفوسهم عِزّات متوهمة: عِزّة الذات، وعِزّة القبيلة، وعِزّة المنصب، وعِزّة الجماعة، وعِزّة الرأي؛ فإذا عرفوا أن الله هو العزيز ذابت هذه العزات الصغيرة في حضرة عزه، وإذا آمنوا أنه الحكيم سلّوا له مواضعهم وأدوارهم، فلم ينازع كل واحد أخاه مكانه، ولم يطلب كل جندي أن يكون قائداً، ولم يأنف صاحب موهبة أن يخدم الحق من موضع لا تراه العيون. إن الصف ليس ترتيب أكثاف فحسب، بل ترتيب مقامات النفس تحت سلطان العزيز الحكيم؛ ولذلك كان أول إصلاح للصف أن يسبّح القلب، أي أن ينزه الله عن كل نقص، وينزه أمره عن العبث، وينزه حكمته عن الاتهام، ثم يخرج من هذا التسبيح وقد صار أكثر تواضعاً وصدقاً وطاعة.

الآية الثانية: السؤال الذي يفضح المسافة بين اللسان والحياة
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

بعد أن ملأ التسييح السماوات والأرض يأتي النداء إلى الذين آمنوا، نداء يحمل التكريم والتكليف معاً. لم يقل: يا أيها الكاذبون، ولا يا أيها المنافقون، بل ناداهم بوصف الإيمان، لأن العتاب هنا ليس طرداً من رحمة الله، وإنما استدعاء إلى مقتضى الاسم الذي حملوه. يا من قلتم إنكم آمنتم، إن للإيمان وزناً، وإن للكلمة تبعه، وإن الانتساب إلى الله لا يكون صوتاً يمر على الشفاه ثم لا يجد له أثراً في اليد والقدم والخلق والموقف. وفي هذا النداء لون من الرحمة الشديدة؛ لأن الله لا يترك المؤمن ليتآكل في تناقضه، بل يكشف له موضع الخلل، ويعيده إلى صورته التي ينبغي أن يكون عليها، ويوقظ فيه الحياء من الاسم الذي شرفه به: إذا كنت من الذين آمنوا، فأين أثر الإيمان في فعلك؟

﴿لَمْ تَقُولُوا﴾ سؤال قصير في ألفاظه، لكنه يفتح محكمة واسعة داخل الضمير. ليس السؤال عن زلة لسان عابرة، ولا عن وعد حال بين الإنسان وبين إنجازه عذر قاهر، وإنما عن الظاهرة التي يصبح فيها القول بديلاً عن العمل، حتى يتوهم المرء أنه أدى واجبه لأنه تحدث عنه، وأنه بلغ منزلة الصالحين لأنه وصفها، وأنه نصر الحق لأنه كتب في فضله، وأنه أحب التضحية لأنه أثنى على المضحّين. إن النفس قد تكتفي بالصورة اللفظية للعمل؛ لأن القول يمنحها لذة الإنجاز من غير أن تدفع كلفته، فتتحدث عن الصبر وهي لا تتحمل أذى يسيراً، وعن الزهد وهي ترتجف خوفاً على حظوظها، وعن الأخوة وهي تضيق بمنافسة أختها، وعن الشجاعة وهي تحسن الهتاف في مواطن السلامة ثم تتراجع عند أول امتحان. ومن هنا يأتي القرآن ليقطع على النفس هذا الاحتيال اللطيف: القول ليس فعلاً، والإعجاب بالفضيلة ليس اتصافاً بها، ووصف الطريق لا يعني أنك سلكته.

وليس المراد أن يصمت الإنسان عن الخير حتى يكتمل، فلو لم يتكلم بالحق إلا الكاملون لانتقطع التعليم والأمر بالمعروف والتواصي بالصبر، والكمال ليس لأحد من البشر؛ ولكن المراد أن يكون قوله عهداً يسعى إلى الوفاء به، وأن يظل واعياً بالفجوة بين علمه وحاله، نجلاً منها، مجاهداً لتضييقها، لا متخذاً من البيان ستاراً يخفي به عجز الإرادة. ثمّة فرق عظيم بين رجل يقول الحق وهو يبكي من تقصيره ويجاهد نفسه ليقترّب منه، ورجل يجعل الحق سلماً إلى إعجاب الناس ثم يعيش مطمئناً إلى نقيضه. الأول مريض يطلب الشفاء، والثاني قد اتخذ من وصف الدواء مهنةً ونسي أن يتداوى. فالسورة لا تغلق أفواه المقصرين، وإنما تفتح أمامهم باب الصدق: إذا قلت، فاجعل قولك قائداً لخطوتك، وإذا علّمت، فكن أول من يجلس في مدرسة ما تعلم، وإذا وعدت الله، فلا تجعل الحماسة ساعةً والعهد عمراً قصيراً ينتهي بانتهاء الموقف.

والتعبير ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أوسع من مجرد إخلاف الوعد؛ فهو يمس كل صورة تنفصل فيها الهوية المعلنة عن الحقيقة المعيشة. قد يقول الإنسان بلسانه إن الله أكبر، ثم تصبح مصلحة صغيرة في قلبه أكبر من أمر الله، وقد يعلن أن الرزق بيد الله ثم يبيع مبدأه خوفاً على راتب، وقد يقرأ أن العزة لله ثم يطلبها عند من يهينه، وقد يتحدث عن وحدة الأمة ثم يغذي أسباب شقاقها، وقد يكتب في الإخلاص وهو يترقب تصفيق الناس، وقد يمدح التواضع لكنه يغضب إذا لم يُقدّم في المجلس. وهنا تظهر عبقرية السؤال القرآني؛ فهو لا يجيب عن الإنسان، بل يجبره على أن يجيب عن نفسه: لماذا تقول ما لا تفعل؟ أهو طلب للمكانة؟ أهو حب الصورة؟ أهو خوف التكاليف؟ أهو ضعف العزم؟ أهو أنك أحببت أن تبدو صالحاً أكثر مما أحببت أن تكون صالحاً؟ وحين يصل المرء إلى جوابه الحقيقي يبدأ الإصلاح؛ لأن كثيراً من أمراض القلب تعيش في الظلام، فإذا سمّاها القرآن وواجهها الإنسان مات شيء من سلطانها.

إن هذه الآية تبني الإنسان من الداخل قبل أن تبنيه في الصف؛ لأن الصف الذي يتكوّن من كلمات بلا أفعال قد يبدو كثيراً في الصور، لكنه ينهار عند أول صدمة. وليس ضعف الأمم دائماً في قلة ما تعرف، بل قد يكون في كثرة ما تقول وقلة ما تجسّد؛ نتضخم فيها نلخطب حتى تضمّر الإرادات، وتكثر الشعارات حتى يقل الرجال، ويتحول المجد إلى قصائد لا إلى أخلاق، والنصر إلى أمنية لا إلى إعداد، والوحدة إلى عنوان لا إلى تنازل متبادل عن حظوظ النفس. وحين ينادي القرآن المؤمنين بهذا السؤال فإنه يريد أن يستردّ للكلمة شرفها؛ لأن الكلمة في ميزان الوحي ليست زينة هواء، بل شهادة وعقد وأمانة، وإذا لم تتبعها الحياة فقد تحولت من جسر إلى الله إلى حجة على صاحبها بين يديه.

الآية الثالثة: حين يصبح التناقض موضع مقت الله
﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

لم تترك السورة السؤال معلّقاً في فضاء الأخلاق العامة، بل نقلته فوراً إلى ميزان الله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾. وهنا يرتجف القلب؛ لأن القضية لم تعد مجرد ضعف في الشخصية أو نقص في الاتساق النفسي أو خلل يسيء إلى الصورة الاجتماعية، بل صارت أمراً بغضاً عند الله. والمقت أشد البغض، وفي اختياره دلالة على فداحة أن يتحول القول الديني إلى قناع، وأن تصبح الكلمات التي ينبغي أن تقود إلى الله وسيلةً لبناء صورة كاذبة عن النفس. إن الذنب لا يُقاس دائماً بحجمه في أعين الناس؛ فقد يمرّ التناقض بينهم مألوفاً، بل قد يكافئون صاحبه إن أحسن صناعة الكلام، لكن المؤمن لا ينظر إلى سوق البشر وحدها، بل يسأل: ما وزن هذا عند الله؟ فقد تصغر الخطيئة في المجالس وتكبر في السماء، وقد يصفق الناس لعبارة يعلم الله أنها لم تخرج من قلب يريد الوفاء بها.

وتكرار ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ بعد ورودها في الآية السابقة ليس تكراراً خالياً من المعنى، بل تثبيت للمشهد في الوعي، كأن العبارة الأولى سؤال يوقظ، والثانية حكم يهزّ. في الأولى يفتح الله باب المراجعة: لم؟ وفي الثانية يكشف خطورة ما يجري: كَبُرَ مَقْتًا. وبين السؤال والحكم تُمنح النفس لحظة لترى قبح فعلها بنفسها، ثم يأتي ميزان الله فيقطع عنها حيل التبرير. فالإنسان بارع في اختراع الأعذار لنفسه؛ يسمى خوفه حكمة، وتراجعته مرونة، وحب ظهوره خدمةً للحق، وإخلافه للوعود تغييراً في الظروف، ثم يظل يبدّل أسماء الأشياء حتى يطمئن إلى قبحه. أمّا القرآن فيعيد إلى الفعل اسمه، ويضعه حيث ينبغي أن يوضع، ويعلم المؤمن ألا يخدر ضميره بتلطيف العبارات.

وفي قوله ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ استحضار لمقام المراقبة الذي يعيد ترتيب الحياة كلها. قد يستطيع المرء أن يقنع الآخرين بأنه صادق؛ لأنهم لا يرون إلا ما يظهر، وقد ينسج حول تقصيره قصةً محكمة لا يملك الناس تفكيكها، لكنه عند الله مكشوف بلا ستار. الله يعلم الكلمة حين وُلدت في القلب قبل أن يجري بها اللسان، ويعلم مقدار الصدق فيها، ويعلم ما كان الإنسان قادراً عليه وما تعمد تركه، ويعلم الأعذار الحقيقية من الحيل النفسية، فلا تنفع البلاغة في تغيير الحقيقة عنده. وإذا استقر هذا المعنى في القلب صار الإنسان أشد عناية بسريره من عنايته بصورته؛ لأن صورته موضع نظر الناس، وسريته موضع علم الله، والمؤمن الحق لا يقبل أن يرمح إعجاب الخلق بثن المقت عند الخالق.

غير أن الآية، على شدتها، ليست باباً لليأس، بل باب للتطهير. إن الله يخبرنا بما يمقت كي نخرج منه، لا كي نظل أسرى الخوف منه، ويكشف لنا خطر الهوة بين القول والفعل كي نشرع في ردمها. وكل توبة صادقة من هذا الداء تبدأ من تخفيف الادعاء، ثم محاسبة النفس، ثم تحويل الكلمات إلى برامج عمل. فإذا قلت إنك تحب القرآن، فليكن له وقت لا تزاخه فضلات الدنيا، وإذا قلت إنك تثق بالله، فليظهر ذلك عند اضطراب الأسباب، وإذا قلت إنك تحب أخاك، فليظهر حين يحتاج منك إلى تضحية لا إلى عبارة، وإذا قلت إنك تطلب الآخرة، فلتَرِ آثارها في اختياراتك، وإذا تعثرت بعد ذلك فلا تدع الوصول، بل قل في صدق العبد: يا رب، هذا ما آمنت به، وهذا ما عجزت عنه، فأعني كي يصبح ما يقوله لساني حياةً في جوارحي.

إن أشد الناس حاجة إلى هذه الآية هم الذين يحملون الكلمات الكبيرة: العلماء والدعاة والمربون والكتّاب والقادة وكل من يتحدث باسم قيمة أو قضية؛ لأن ارتفاع الكلمة يضعف مسؤولية صاحبها. وليس الخطر أن يضعف الإنسان مرة، فالضعف من طبيعته، وإنما الخطر أن يصير التناقض نظاماً مستقراً، وأن يتزَيّن صاحبه للناس بما لم يتزَيّن به لله، وأن يجعل مكانته في أعينهم بديلاً عن مقامه عنده. وحينئذ تصبح الكلمة التي كان يمكن أن تهديه سبباً في قسوة قلبه؛ لأنه يكرر الحق كثيراً حتى يألف سماعه من نفسه من غير أن يشعر بحاجته إليه. ولذلك كانت النجاة في أن يقف القائل دائماً تحت كلمته لا فوقها، وأن يعد نفسه أول مخاطب بها، وأن يخاف من جمال البيان إذا لم يصحبه جمال الامتثال.

الآية الرابعة: المحبة التي تنزل على الصفّ حين يصير بنياناً
﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَنِيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾

بعد التحذير من القول الذي لا يصدقه العمل، تعرض السورة الصورة المقابلة: أناس لم تبق كلماتهم في أفواههم، بل تحولت إلى أجساد واقفة في سبيل الله. وهنا ينتقل الإيقاع من مقت التناقض إلى محبة الصدق، ومن فراغ الادعاء إلى امتلاء البذل، ومن الفرد المتردد داخل ذاته إلى جماعة انتظمت في صف. وما أبهى هذا الانتقال؛ فكأن الله لا يريد أن يترك القلب واقفاً عند الخوف من المقت، بل يفتح أمامه مقام المحبة: إن أردتم أن تعرفوا أين تنزل محبة الله، فانظروا إلى أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا عليه، وخرجوا من أسر ذواتهم، ووقفوا متماسكين في سبيله.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ﴾، وهذه وحدها غاية تتضاءل دونها الغايات. لم يقل فحسب إنهم يؤجرون، أو ينتصرون، أو يعلو ذكركم، مع أن ذلك قد يكون من ثمرات جهادهم، بل بدأ بما هو أعظم: محبة الله. إن المؤمن لا يبذل نفسه لأنه يعشق الصراع، ولا لأن الدم غاية في ذاته، ولا لأن القوة إله جديد يعبد، وإنما لأن ثمة حقاً لا يقوم إلا بمن يحميه، وعدلاً لا يعيش إلا بمن يدفع عنه، ومستضعفين لا تصل إليهم النجدة إلا إذا تحولت العقيدة إلى قوة أخلاقية مسؤولة. ولذلك قيد القتال بقوله ﴿فِي سَبِيلِهِ﴾؛ فالسبيل هو الذي يطهر الفعل من أهواء النفس، ويفصل جهاد المؤمن عن حروب الطغاة. قد يقاتل الناس للعصبية، أو الغنيمة، أو الانتقام، أو توسيع السلطان، أو تجييد القائد، أما سبيل الله فلا يحتمل شريكاً في القصد، ولا يبيح ظلماً في الوسيلة، ولا يجعل الغضب الشخصي راية مقدسة.

والآية لا تجدد حركة فردية مضطربة، بل تقول ﴿صَفًّا﴾. والصف أكثر من اجتماع أجساد في مكان؛ إنه وحدة وجهة، وانضباط مقصد، وتكامل أدوار، وقدرة على تأخير حظ النفس من أجل مصلحة الحق. إن الإنسان منفرداً قد يكون شجاعاً، لكنه لا يصنع أمة ما لم يتعلم كيف يقف إلى جوار غيره، وكيف يقبل أن يسدّ موضعاً لا يحقق له مجداً شخصياً، وكيف يثق بإخوانه ويحمي ظهورهم، وكيف يضبط حماسه بحكمة الجماعة. وكثير من الهزائم لا تأتي من قوة العدو، بل من الفراغات التي تتركها الأنانية بين أهل الحق: هذا يريد الصدارة، وذاك يغضب لأن رأيه لم يؤخذ، وثالث يترك موضعه لأنه لم يُشكر، ورابع يظن أن إخلاصه يعفيه من النظام، حتى تكون القلوب متجاوزة في المكان متباعدة في الوجهة.

ثم تأتي الصورة الباهرة: ﴿كَانَهُمْ بَنِيَّانٌ مَرْصُوصٌ﴾. ليست جماعة من الحجارة الملقاة بعضها قرب بعض، بل بنيان؛ أي إن كل لبنة قد عرفت موضعها، واتصلت بما حولها، وحملت وحملت، وأسهمت في قيام الكل. والمرصوص هو المحكم المتلاحم الذي لا تبدو فيه الثغرات، وكأن الآية تنقل الصف من مستوى التجاور إلى مستوى التداخل في الوظيفة والمصير. في البنيان لا تستطيع لبنة أن تقول: سأقوم وحدي، لأن قوتها ليست في صلابتها المنفردة فقط، بل في اتصالها بما فوقها وتحتها وعن يمينها وشمالها. وكذلك الأمة لا تُبنى بالعاقرة المنعزلين وحدهم، بل بأفراد يعرف كل منهم أن موهبته لا تكتمل إلا داخل مقصد جامع، وأن اختلاف المواقع لا يعني تفاوت الكرامة عند الله، وأن اللبنة المخفية في الأساس قد تكون أعظم أثراً من الزينة الظاهرة على الواجهة.

وفي صورة البنيان معنى الحماية المتبادلة؛ فكل لبنة تسند غيرها وتستند إليها، ولا ينحور جزء إذا تصدّع الكل. وهذا يحرر الأخوة من كونها عاطفة موسمية إلى كونها مسؤولية بنائية: أن تستر ضعف أخيك بما لا يقرّ باطلاً، وأن تكبّل نقصه، وأن تنصحه دون أن تهدمه، وأن تفرح بموهبته لأنها تقوّي البنيان الذي تنتمي إليه، لا أن تراها خصماً من مجدك. وحين تحسد لبنةً لبنةً أخرى يبدأ الشق في الجدار، وحين يتنافس العاملون على الأسماء بدل الأعمال تتحول الجماعة إلى ركام أنيق لا إلى بنيان. قد يكثر أفرادها، وتعظم ضوضاؤها، وتملأ صورها المشهد، لكنها تنداعى عند أول اختبار لأن ما جمعها كان الحماسة لا العهد، والمصلحة لا الإيمان، والتجاور لا التراص.

وليس التراص إلغاءً للشخصية، كما قد يتوهم بعض الناس؛ فالبنيان الجميل لا يجعل كل أجزائه متطابقة، بل يجعلها متكاملة. ثمّة أساس لا يُرى، وعمود يحمل، وجدار يسترّ، وباب يفتح، ونافذة تدخل منها الأنوار، ولكل جزء وظيفته التي لا يقوم الآخر مقامها. إنما المذموم أن تتحول الخصوصية إلى تمرّد على المقصد الجامع، أو أن يجعل الإنسان اختلاف موهبته سبباً للخروج من الصف. والقيادة الحكيمة لا تسحق الطاقات لتصنع تماثلاً ميتاً، بل تضع كل طاقة في موضعها، كما أن الجندية الصادقة لا تعني ذوبان العقل، بل تعني أن يعمل العقل في إخلاص داخل أمانة الحق، بعيداً عن فوضى الأهواء وحب الظهور.

وهكذا تقيم الآية صلة عميقة بين المحبة والنظام؛ فحبة الله لا تُطلب بالأشواق المجردة فقط، بل قد تُطلب بأن يضبط المرء خطواته كيلا يفتح ثغرة، وأن يفي بواجبه وإن لم يره أحد، وأن يبقى في موضعه حين يغريه التعب بالانسحاب، وأن يحفظ أخاه حين تهب ريح الفتنة، وأن يقدم بقاء البنيان على بروز اسمه. وربّ كلمة أخوة لا تساوي عند الامتحان شيئاً، بينما موقف صامت يسد ثغرة في الصف يكون عند الله من دلائل المحبة. فالسورة التي أنكرت القول بلا فعل تعرض هنا فعلاً لا يحتاج إلى ضجيج: صف متماسك، وقلوب متوجهة، وأجساد عرفت أن الطريق إلى محبة الله قد يمرّ من موضع الثبات الذي لا تصفق له الجماهير.

الآية الخامسة: جرح النبي حين يأتيه الأذى من عرفوا صدقه
﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَتُذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا
أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

من مشهد الصف المتماusk تنتقل السورة إلى مشهد قوم آذوا رسولهم، وكأنها تكشف الجهة المقابلة للبيان المرصوص: جماعة تجمعها النسبة إلى رسالة واحدة، لكن أهواءها وخصوماتها الداخلية جعلتها تؤدي حامل الرسالة نفسه. وليس في الانتقال انقطاع، بل تحذير عميق لأمة محمد ﷺ: لا يكفي أن تنتسبوا إلى نبي، فقد انتسب قوم موسى إلى نبي كريم ثم آذوه، ولا يكفي أن تعرفوا صدق الرسول، فقد كان عليهم حجة عليهم لا نوراً يهديهم. إن المعرفة إذا لم تتحول إلى وفاء قد تصبح عبثاً مضاعفاً، لأن الجهل قد يربح لصاحبه أن يتعلم، أما من عرف ثم آذى فقد جعل بين العلم والإرادة خصومةً أفست قلبه.

يقول موسى عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ﴾، وفي النداء دفء القرابة رغم الألم. لم يسلبهم نسبتهن إليه من أول آذى، ولم يخاطبهم بلغة المتعالي الغريب، بل ذكّرهم بأنه منهم وأنه جاء لخيرهم، وأن الجرح الذي يصيبه إنما يأتيه من قومه الذين حمل همّ نجاتهم. وما أشد آذى القريب حين يعرف موضع القلب ثم يطعنه؛ فالعدو إذا آذى كان أذاً متوقعاً، أما الذين عرفتهم، وحملت عنهم، وسرت أمامهم في الطريق، ثم قابلك بالجوهر وسوء الظن وكثرة الاعتراض، فإن أذاهم ينفذ إلى موضع لا يبلغه سهم الغريب. ومع ذلك ظل النداء نبوياً: يا قوم. لم يدفعه الألم إلى إنكار حقهم في الدعوة، ولم يحول الجرح إلى شهوة انتقام، بل جعله سؤالاً يعيدهم إلى ضمائرهم: ﴿لِمَ تَتُذُونَنِي﴾؟

ثم تأتي العبارة الكاشفة: ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾. لم يكن أذاهم ناشئاً عن غموض في حقيقة موسى، بل وقع مع وجود العلم. و﴿قَدْ﴾ مع الفعل المضارع تفيد التحقيق؛ أي إن صدق رسالته كان معلوماً لهم بما رأوا من الآيات، وبما خبروا من نجاحهم على يديه، وبما شهوده من هلاك فرعون وانفلاق البحر. لكن النفس لا تُقاد بالبرهان وحده إذا فسدت إرادتها؛ فقد يرى الإنسان الآية ثم يجادل، ويعرف الفضل ثم ييحد، ويتأكد من صدق الناصح ثم يرفض نصيحته لأنها تخالف هواه. ولذلك ليست أزمة البشر دائماً في نقص الدليل، بل قد تكون في ثقل ما يطلبه الدليل منهم؛ فالحق حين يبقى فكرةً يعجبهم، فإذا صار تكليفاً يحد من شهواتهم بدأوا يبحثون عن ثغرة في حامله، لا لأنهم لم يعرفوا صدقه، بل لأن الاعتراف بصدقه يلزمهم بالطاعة.

وهذه الآية تسلي كل من حمل حقاً ثم جاءه الأذى ممن يرجو نصرتهم؛ فلا ينبغي للداعية أو المصلح أو المري أن يتوهم أن وضوح صدقه سيمنع الناس من أذيته، فقد يعلمون صدقه ثم يضيّقون به؛ لأن حضوره يوقظ فيهم ما يريدون إنامته، ولأن كلمته الصادقة تكشف المسافة بين صورتهم وحقيقتهم. غير أن الآية في الوقت نفسه تهذب حامل الرسالة، فلا تمنحه حق التشفي بمن آذاه، بل تضع أمامه أدب موسى: سؤال، وتذكير، وصبر، وترك عاقبة القلوب لله. ليس كل من خالفك مؤذياً لني، وليس كل رأي لك رسالةً واجبة الاتباع؛ فلا يصح أن يستعير الإنسان مقام الأنبياء ليقُدّس ذاته. إنما العبرة أن من ثبت له الحق لا ينبغي أن يردّه حسداً أو كبراً أو ضيقاً بصاحبه، وأن من حمل شيئاً من الإصلاح عليه أن يحتمل أذى الطريق دون أن يتحول هو نفسه إلى مصدر أذى.

ثم تبلغ الآية موضعاً مريباً: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾. بدأ الزيف منهم قبل أن تذكر إزاعة القلوب جزاءً عليهم؛ هم الذين مالوا عن الحق بعدما تبين، وهم الذين اختاروا الانحراف أول مرة، وهم الذين استمروا أذى الرسول وتجاوز الحدود، فلما جعلوا الزيف مسلماً عاقبهم الله بأن ترك قلوبهم تتماذى فيما اختارت، وحال بينها وبين الهداية التي أعرضت عنها. وهذه من أخوف سنن القلوب: أن المعصية ليست حادثة تنتهي بانتهاء وقتها، بل قد تترك في القلب ميلاً جديداً، وأن رد الحق مرة يسهل رده ثانية، وأن الاستهانة بالانحراف تفتح طريقاً إلى انحراف أكبر، حتى يصبح ما كان يؤلم الضمير عادة لا يشعر بها.

القلب لا ينقلب غالباً في لحظة واحدة، بل يزيف درجةً درجة. تبدأ الحكاية بتأويل صغير يحجب مصلحة، ثم بموقف يبرره الهوى، ثم بكلمة أذى لا يعتذر عنها صاحبها، ثم بإصرار يحول الخطأ إلى هوية، ثم يجد الإنسان نفسه يدافع عن الباطل لا لأنه لم يره، بل لأنه لم يعد قادراً على الاعتراف بأنه سار طويلاً في الطريق الخاطئ. وفي كل مرة يؤجل فيها الرجوع تزداد كلفته النفسية، فيختار أن يواصل بدل أن ينكسر لله. ولهذا كان المؤمن يسأل ربه دائماً ثبات القلب، ولا يأمن على نفسه لمجرد أنه عرف الحق في يوم من الأيام؛ فكم من إنسان حمل نوراً ثم أسلمه إلى ريح الكبر، وكم من قلب بدأ اعتراضه على شخص ثم انتهى اعتراضاً على الحقيقة التي يحملها ذلك الشخص.

وتختتم الآية: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ، والفسق خروج؛ خروج عن طاعة الله بعد ظهور الطريق، وخروج من حدود العهد إلى فضاء الهوى. وليس المعنى أن باب التوبة مغلق في وجه من رجع، فرحة الله وسعت التائبين، وإنما المعنى أن من اختار الفسق وصفاً مستقراً وأصر عليه لا يُوفَّق إلى هداية لا يريدّها، ولا يُساق إلى النور وهو يغلق نوافذ قلبه متعمداً. فالهداية ليست معلومات تلقى في عقل بارد، بل توفيق يمنحه الله لقلب يطلب الحق ويخضع له، ومن جعل غايته الانتصار لنفسه ولو خسر الحقيقة عوقب بحرمان البصيرة، وربما بقي ذكياً في الجدل، واسع المعرفة، فصيح العبارة، لكنه لا يرى الطريق لأن ظلمة الإرادة حجب نور العقل.

الآية السادسة: عيسى عليه السلام وجسر البشارة إلى الرسالة الخاتمة

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

وبعد موسى عليه السلام يأتي عيسى ابن مريم عليه السلام، فتنظم الرسالات في مشهد واحد، ويظهر الوحي نهراً متصلاً لا جزراً متخامة. وقد كرر القرآن وصفه ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ليقم الحقيقة في موضعها النقي: نبي كريم، آية من آيات الله، مولود من أم صديقة، من غير أب بقدره من يقول للشيء كن فيكون، لكنه عبد الله ورسوله، لا ابن لله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وفي نسبته إلى مريم تكريم لها وتصحيح لما انحرف فيه الغالون والجالفون معاً؛ فلا هو موضع اقتراء الذين رموه وأمه، ولا هو موضع غلو الذين رفعوه فوق مقام العبودية والرسالة.

ويقول عيسى عليه السلام: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، لا «يا قومي» كما قال موسى؛ إذ لا ينتسب إليهم من جهة الأب، ولكنه يخاطب الجماعة التي أرسل إليها بوضوح. ثم يعلن: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾، فيضع هويته كلها داخل معنى الرسالة. لم يأت ليصنع لنفسه مجداً منفصلاً، ولم يدع الناس إلى عبادته، وإنما جاء رسولاً من الله، يحمل أمره ويهدي إليه. وكل نبي صادق يخفف حضور ذاته كي يظهر المرسل، وكل داعية انشغل بنفسه عن رسالته فقد ابتعد بمقدار ذلك عن ميراث الأنبياء؛ فهم أبواب تدل على الله، لا جدران تحجب الناس عند أشخاصهم.

ثم يبين موقعه في سلسلة الوحي: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾. إن الرسالة الجديدة لا تأتي دائماً لهدم كل ما سبق، بل تأتي لتصدق الأصل الإلهي، وتعيد ما حرفته الأهواء إلى نقائه، وتنسخ من الأحكام ما شاء الله بحكمته، وتصل الإنسان بمصدر الوحي الواحد. فموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ليسوا مؤسسي مشاريع بشرية متنافسة، بل رسل رب واحد، تتنوع شرائعهم في بعض الأحكام وتتوحد أصول دعوتهم في عبادة الله وتوحيده والاستسلام له. ومن هنا فإن الإيمان ببعضهم والكفر ببعضهم تمزيق لما أراد الله له أن يفهم في وحدته؛ فالمسلم يحب موسى، ويوقر عيسى، ويؤمن بمحمد ﷺ خاتماً للنبيين، ويرى في هذا الإيمان المتصل وفاءً للنهر كله لا تعصباً لمرحلة منه ضد أخرى.

لكن عيسى عليه السلام لم يقف عند التصديق بالماضي، بل فتح نافذة على المستقبل: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾. والتعبير بالبشارة عجيب الدفء؛ فجيء محمد ﷺ ليس خبراً محايداً، بل فرح ينتظره العالم، ورحمة تهيأ لها الإنسانية، وإتمام لمسيرة النور. واسم ﴿أَحْمَدُ﴾ يحمل معنى الحمد في أجلى مراتبه؛ فهو أحمد الناس لربه، ومن أحقهم أن يُحمد لما أجرى الله على يديه من الهدى والرحمة. وكأن الرسالات قبل بعثته كانت تنظر إلى أفق قادم تتجمع فيه أنوار النبوة الخاتمة، حيث ينزل الكتاب المهيم، وتخرج الرسالة من حدود القوم إلى العالمين، ويصير النداء موجهاً إلى الناس كافة.

وفي قوله ﴿يَأْتِي مِنْ بَعْدِي﴾ أدب الرسالة التي لا تحبس الناس عند حاملها. عيسى عليه السلام يعلم أتباعه أن الوفاء الحقيقي له سيكون باتباع الرسول الذي بشر به، لا بتحويل شخصه إلى حاجز بينهم وبين أمر الله اللاحق. وهذه قاعدة في الصدق: الحب الصادق لا يجعل وفاءه للأسماء مانعاً من اتباع الحق، ولا يحول التاريخ إلى صنم يصدّه عن المستقبل الذي أراده الله. أما العصبية فتتعلق بالمألوف حتى لو جاء البرهان، وتدافع عن هوية موروثه ولو ناقضت الأصل الذي تزعم الانتساب إليه.

ثم يقع المشهد المتكرر في تاريخ البشر: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾. جاءت البينات، أي الحجج الواضحة والآيات الكاشفة، ولكنهم لم يناقشوها بما يليق بها، بل ألقوا عليها اسماً يريحهم من تبعة الإيمان: سحر. هكذا يفعل العاجز عن مواجهة الحقيقة؛ لا يبطل الدليل، بل يشوّه اسمه، ولا يفسر النور، بل يطلب من الناس أن يغمضوا أعينهم عنه. وما أكثر الألفاظ التي تُستخدم عبر التاريخ لإعدام الحق معنوياً؛ يسمون الثبات جموداً، والتجرد تطرفاً، والتنازل عن الهوى ضعفاً، والتمسك بالمبدأ سذاجة، ثم يظنون أن تغيير الاسم يغيّر حقيقة المسمّى.

ويكشف التعبير عن مأساة العقل حين تستعبده المصلحة؛ فقد تكون البيئة مبيّنة في ذاتها، لكن القلب لا يريد ما تبينه. وبهذا نتصل الآية بما قبلها: قوم موسى علموا أنه رسول الله ثم آذوه، وهؤلاء جاءتهم البينات ثم وصفوها بالسحر. ليست المشكلة إذن دائماً في غياب الوضوح، بل في غياب التجرد. وإذا أراد الإنسان الهداية فليطلب من الله قبل كثرة الأدلة قلباً أميناً على الأدلة؛ لأن البرهان قد يملأ الغرفة نوراً، لكن من أغلق عينيه لن يزيده الضوء إلا انزعاجاً.

الآية السابعة: أَظْلَمُ الظُّلْمُ أَنْ يُفْتَرَى عَلَى اللَّهِ بِاسْمِ الدِّينِ
﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ﴾

تبلغ المواجهة هنا ذروة أخلاقية صارمة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، أي لا أحد أشد ظلماً ممن يصنع الكذب ثم يرفعه إلى مقام النسبة إلى الله. فلاقتراء ليس كذبة عادية تقف آثارها عند علاقة بشر ببشر، بل اعتداء على مصدر الهداية نفسه؛ إذ يوهم الناس أن الله قال ما لم يقل، أو شرع ما لم يشرع، أو رضي ما لم يرض، أو يصدّ عن رسوله بعد أن قامت البيّنات. وما أعظم الجريمة حين يلبس الهوى ثوب الوحي؛ لأن الباطل إذا ظهر باسمه انكشف، أما إذا سرق لغة الدين فقد يضل به خلقاً كثيراً.

والمفارقة المزلزلة في قوله: ﴿وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾. إنه لا يفتري في صحراء خالية من النداء، بل والباب مفتوح أمامه، والحق يدعوه، والسلام مع الله ينتظره، والطريق واضح. والإسلام هنا هو الاستسلام لله بالتوحيد والطاعة، والخروج من عبودية الهوى والناس إلى عبودية الواحد الأحد. ومن أشد الظلم أن يدعى المرء إلى السلامة فيختار الافتراء، وأن تُمدّ له يد النجاة فيتهمها، وأن يُعرض عليه نور الله فيؤثر ظلام الهوية المتعصبة أو المصلحة العاجلة.

والاقتراء على الله صور كثيرة؛ منه إنكار رسله، ومنه تحريف كلامه، ومنه تحريم ما أحل أو تحليل ما حرم بغير علم، ومنه توظيف الدين لتقديس الظلم، ومنه أن يجعل المرء رغبته الخاصة أحكاماً إلهية ثم يطالب الناس بالخضوع لها. والمؤمن الحق يرتجف قبل أن يقول: هذا حكم الله؛ لأنه يعلم أنه يوقع عن رب العالمين، وأن الخطأ المتواضع الذي يعترف باحتماله غير الكذب المتكبر الذي يمنح نفسه عصمة لم يمنحها الله لأحد بعد رسله في تبليغهم عنه.

وتختم الآية: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. والظلم وضع الشيء في غير موضعه، وأعظم ذلك أن يوضع الكذب موضع الوحي، والهوى موضع الهدى، والعبد موضع المعبود، والتعصب موضع البرهان. ومن استقر على هذا الظلم حُرِمَ هداية التوفيق ما دام مصراً؛ لأنه لا يريد أن يتلقى الحق، بل يريد أن يصنع حقاً على مقاسه. ولا ينجو العقل بكثرة محفوظاته إذا فقد تواضعه، ولا ينجو المتدين بكثرة شعائره إذا استخدم الدين لحراسة ظلمه؛ فالهدى يحتاج قلباً عادلاً مع الحقيقة، مستعداً لأن يخسر رأياً قديماً كي لا يخسر الله.

الآية الثامنة: أفواه نتوهم أنها تستطيع إطفاء الشمس
﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾

يا لها من صورة تجمع السخرية من عجز الباطل والطمأنينة إلى قدرة الله: أناس يقفون أمام نور الله بأفواههم، كأنهم أمام مصباح صغير تكفيه نفخة، بينما هو نور من أشرق الوجود بأمره، وأنزل الوحي بحكمته، وحفظ رسالته بقدرته. إن التفاوت بين الوسيلة والغاية يكشف منذ البداية استحالة المحاولة؛ أفواه محدودة في مواجهة نور الله، وشائعات عائرة في مواجهة حقيقة باقية، وأعمار قصيرة في مواجهة وعد إلهي ممتد.

اختيرت الأفواه لأنها موضع الاقتراء والتشويه والسخرية والجدل؛ فبعد أن عجزوا عن رد البنات لجؤوا إلى صناعة القول المضاد. وهم يريدون أن يطفئوا النور لا بالحجة، بل بضجيج الخطاب، وكأن تكرار الكذبة سيحوّلها حقيقة. وهذا مشهد يتكرر في كل عصر؛ قد تتغير المنابر والأدوات، وتنتقل الأفواه إلى شاشات وصحف ومنصات، لكن الوهم واحد: أن إغراق الوعي بالتشويش يمكن أن يلغي الحقيقة. غير أن النور قد يُحجب عن عين اختارت العمى، لكنه لا ينطفئ؛ وقد يُحاصر في بلد، لكنه يشرق في بلد آخر؛ وقد يُقتل حاملوه، لكنه يسري من دمائهم إلى ضمائر أجيال لم يروها.

ثم يأتي الوعد في جملة اسمية ثابتة: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾. ليس إتمام النور احتمالاً متوقفاً على رضا البشر، بل أمر تكفل به الله. ومع ذلك لا تعني الآية أن المؤمنين معفون من العمل، أو أن الوعد يبرر الكسل؛ فالله الذي تكفل بإتمام نوره دعاهم في السورة نفسها إلى الجهاد والنصرة والاصطفاف. إن وعد الله لا يلغي دور الإنسان، بل يحرره من اليأس أثناء أذائه؛ يعمل لا لأنه يحمل الكون على كتفيه، بل لأنه يتشرف بأن يكون سبباً من أسباب قدر الله، ويثبت لأنه يعلم أن النتيجة الكبرى ليست رهينة ضعفه الفردي.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾؛ فكرههم لا يغير الحقيقة، وإعراضهم لا ينقص النور، وكثرتهم لا تمنح الباطل شرعية. وهذه تربية للمؤمن على ألا يجعل قبول الناس ميزاناً نهائياً لصحة الطريق. قد يكون الحق ثقیلاً لأنه يهدد امتيازات راسخة، وقد تكرهه نفوس لأنها ألفت الظلمة، لكن الشمس لا تستأذن من اعتاد السرداب كي تطلع. وفي الآية سَكينة عظيمة لكل قلب يؤلمه ما يرى من حملات على الوحي: لا تهوّن من مكر الباطل، ولا تترك واجبك، ولكن لا تمنحه في قلبك من القدرة ما لم يمنحه الله في الواقع؛ إنه يستطيع التشويش والإيذاء والتأخير، لكنه لا يستطيع إطفاء نور ضمن الله إتمامه.

الآية التاسعة: الرسالة التي لا تُقاس بضجيج خصومها
﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾

إن النور الذي وعد الله بإتمامه ليس معنى غامضاً، بل تجسد في رسول أرسله الله ﴿بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾. فالهدى نور المعرفة الذي يكشف الطريق، ودين الحق هو المنهج الذي ينظم السير فيه؛ الهدى يصحح التصور، والدين يصوغ الحياة، فلا يظل الإيمان خواطر روحانية مفصولة عن الأخلاق والمجتمع والعدل والعبادة. وقد جاء محمد ﷺ بالحق في منبعه وغاياته وميزانه، فلا يحتاج دينه إلى باطل يحميه، ولا إلى كذب يجمله، ولا إلى ظلم يقيمه؛ لأن ما كان من عند الله لا يُنصر بمعصيته.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾، فالرسالة اختيار إلهي، ومحمد ﷺ رسول الله لا صانع عقيدة من عند نفسه. ومن عرف المرسل عظم الرسالة، ومن عظم الرسالة لم يحاكمها إلى أهواء العصور المتقلبة، وإن فهمها في ضوء لسانها وسياقها ومقاصدها، واجتهد في تنزيل هداها بحكمة وبصيرة. إن الوحي لا يستمد حقه من موافقة الناس، بل الناس هم الذين يستمدون رشدهم من موافقته؛ لأن خالق الإنسان أعلم بما يصلحه من الإنسان نفسه.

ثم يعلن الغاية: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾. وهذا الظهور يتضمن ظهور الحجة والبيان، وما يقدره الله من ظهور السلطان والانتشار، حتى يتبين تفوق هذا الدين في توحيدهِ وميزانه ونظامه الأخلاقي. وقد وقع من ذلك في التاريخ ما شهدته القرون، ويبقى وعد الله أوسع من لحظة واحدة. وليس الظهور تفويضاً للمسلمين بالظلم، فالدين الذي يظهر بالحق لا يتحول إلى باطل في يد أهله؛ إنما هو مسؤولية أن يجسدوا عدله ورحمته وصدقه، حتى لا يكون سوء تمثيلهم حجاً بين الناس وبين جماله.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ تكرر المعنى ليقطع من القلب هيبة الكراهية البشرية. فالمشرك

قد يكره التوحيد لأنه يسقط الأرباب التي تمنحه امتيازًا، وقد يكره العدل لأنه يسحب منه حقًا مزعومًا، وقد يكره الرسالة لأنها تساوي بينه وبين من استضعفهم أمام رب واحد. لكن التاريخ لا ينتهي عند إرادة المشركين، والحق لا يشيخ لأن خصومه كثروا. إن الذي أرسل رسوله هو صاحب المستقبل كما هو صاحب الماضي، ومن ثم يستطيع المؤمن أن يعمل في أحلك الساعات وقلبه يرى وراء الدخان وعدًا لا يخلفه الله.

الآية العاشرة: حين يخاطب الله الإنسان بلغة التجارة التي يعرفها
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾

يعود النداء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، لكنه هذه المرة لا يأتي بالعتاب، بل بالعرض الكريم. وكأن الذين نجوا من آفة القول بلا عمل، ورأوا نور الله ووعد ظهوره، صاروا مهينين للدخول في التجارة الكبرى. والله غني عنهم وعن تجارتهم، ومع ذلك يخاطبهم بلغة قريبة من خبرتهم؛ فالإنسان يعرف البيع والربح والخسارة، ويسهر على صفقة محدودة لثلاث فواته، فيدعوه الله إلى صفقة لا ينفد ربحها ولا يتطرق إليها الإفلاس.

﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ سؤال يفيض لطفًا؛ فرب العالمين هو الذي يعرض الدلالة على عبادته، مع أنهم المحتاجون، وهو الغني. إنه لا يأمرهم أمرًا مجردًا فحسب، بل يشوقهم ويفتح شهيتهم للنجاة، كأن الطريق كنز مخبوء يريد لهم أن يهتدوا إليه. وفي صيغة السؤال إيقاظ للإرادة: هل تريدون حقًا أن تعرفوا؟ هل أنتم مستعدون لدفع الثمن؟ فالمشكلة ليست دائمًا في غياب الطريق، بل في أن الإنسان يريد ربحه بلا كلفته، ويريد الجنة من غير أن يخرج من أسر ذاته.

وسمى الإيمان والجهاد تجارة؛ لأن فيهما بذلًا وعضًا، لكن الفارق أن تجارات الأرض معرضة للتقلب، أما التجارة مع الله فربحها مضمون لمن صدق. رأس مال الإنسان فيها عمره ونفسه وماله، وكل ذلك في الحقيقة عطية من الله، ثم يشتريه الله منه ويمنحه مقابلته المغفرة والجنة؛ فيا لكرم من وهب رأس المال، ثم قبله منك، ثم ضاعف لك الثمن! وليس مقصد التجارة هنا أن يتحول الإيمان إلى نفعية باردة، بل أن يفهم الإنسان أن ما يظنه خسارة في سبيل الله هو الربح الحقيقي، وأن ما يحتفظ به خوفًا من البذل قد يتركه كله عند الموت بلا عوض.

﴿تُنَجِّكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ فالقضية ليست تحسیناً هامشياً للحياة، بل نجاه المصیر. والإنسان یهرب من ألم ساعة، ویبدل ماله للعلاج من مرض، ویغیر بلده خوفاً من خطر، فکیف یغفل عن عذاب لا یقاس بأوجاع الدنیا؟ إن ذکر العذاب هنا لا یفسد جمال العرض، بل یمنحه صدقه؛ فالرحمة لیست أن نخفی الخطر عن السائر، وإنما أن ندله على طریق النجاه. ولأن الله رحیم لم یکتف بالإنذار، بل وضع التجارة بین أیدینا، وشرح فی الآیة التالیة رأس مالها.

الآية الحادية عشرة: الإيمان الذي يتحول إلى بذل
﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

هذا هو بيان التجارة: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. يبدأ الأمر من القلب؛ لأن العمل بلا إيمان قد يكون بطولة بشرية، لكنه لا يصير عبادة حتى يتصل بالله. والإيمان بالله ليس الاعتراف الذهني بوجوده فحسب، بل أن يصير الله الحقيقة الكبرى التي تنتظم حولها بقية الحقائق، فيكون أمره مقدماً، ووعدته أوثق، ونظره أعظم في القلب من نظر الخلق. والإيمان برسوله ﷺ هو تصديقه واتباعه ومحبة هديه والتحاكم إلى ما جاء به، فلا يدعي أحد محبة المرسل وهو يرد طريق الرسول.

لكن الإيمان الذي تعرضه السورة ليس دعوى ساكنة؛ لذلك تعطف عليه: ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. والجهاد بذل الوسع في نصرته الحق ودفع الباطل، ومن ذروته القتال المشروع بضوابطه وشرائطه، كما دل سياق السورة. ولا تستقيم قراءة الآية إذا تزعت من الجهاد معناه الشرعي، ولا إذا حُوِّلَ إلى فوضى يتولاها الأفراد بأهوائهم؛ فهو في سبيل الله، محكوم بأمره وأخلاقه، لا سبيل الغضب المنفلت ولا العدوان. ويدخل في تهيئة الأمة له جهاد النفس بالصدق والثبات، وجهاد العلم والبيان، وجهاد المال، وبناء أسباب القوة؛ فالميدان لا يصنع الرجال فجأة، بل يكشف ما صنعتته العبادة والتربية قبل دخوله.

قدّمت الأموال على الأنفس؛ لأن بذل المال باب واسع يتكرر، ولأن النفس شديدة التعلق بما تملك، ولأن كثيراً من الناس يتمنون البطولات النادرة وهم يخلون بالتكاليف اليومية. المال قطعة من العمر مخزونة، وثمرة جهد وتعب، فإذا بذله الإنسان لله كان كأنه يحرر جزءاً من حياته من سلطان الدنيا. ثم يبلغ البذل قمته في الأنفس، حيث لا يعود المؤمن يقدم شيئاً خارج ذاته، بل يقدم ذاته إذا تعين الواجب، وهو يعلم أن النفس التي يهبها لله لا تضيع، بل تعود إليه حياةً أكل عند رب كريم.

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ والخير هنا قد يخالف الحساب العاجل. النفس ترى الاحتفاظ بالمال خيراً، والسلامة خيراً، والابتعاد عن التكاليف خيراً، لكن الله الذي يعلم عواقب الأشياء يقول: ذلكم خير لكم. كم من شيء حسبه الإنسان حفظاً لنفسه فكان سبب هوانها، وكم من بذل حسبه خسارة فصار باب كرامته! إن الخيرية لا تُقاس بلحظة الألم، بل بنهاية الطريق، ولا بما بقي في اليد، بل بما وُضع في ميزان الله.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ليست تشكيكاً في الخير، بل إيقاظ لعلم يتجاوز السطح. لو علم الإنسان حقيقة الدنيا، وقصر العمر، وبقاء الآخرة، وكرم المشتري، لهان عليه الثمن. البخل في جوهره خلل في المعرفة قبل أن يكون نقصاً في المال؛ لأن من عرف أن ما عنده ينفد وما عند الله باقٍ لم ير البذل فناً. والخوف المفرط خلل في الرؤية؛ لأن من عرف أن الآجال بيد الله لم يظن أن الفرار من الواجب يشتري له لحظة زائدة لم يكتبها الله.

الآية الثانية عشرة: الرّيح الذي يبدأ بالمغفرة وينتهي في مساكن الرضوان
﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ
عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

يبدأ عوض التجارة بالمغفرة قبل الجنة: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾. فالإنسان لا يحتاج إلى النعيم فقط، بل يحتاج قبل ذلك إلى أن يُطَهَّر من أثقاله، وأن يسقط عنه ماضي التقصير، وأن يلقي الله وقد محا عنه ما كان يخجل أن يكشف. والمغفرة ليست تجاهلاً للذنوب، بل ستر وتجاوز ومحو بفضل الله بعد توبة وإيمان وصدق. وما أعظمها من بشارة لمن أثقلته صحائفه؛ إن طريق النصرة لا يفتح له المستقبل وحده، بل قد يطهر وراءه الطريق الذي جاء منه.

ثم ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، والجريان حياة دائمة وحركة جمال لا تنقطع. في الدنيا يخاف الإنسان على النعمة من الجفاف والزوال، أما هناك فالأنهار تجري، والخير مقيم، والنعيم لا تهدده نهاية. والجنة ليست فكرة رمزية، بل دار حق أعدها الله لعباده، فيها من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وما ذكره الوحي منها يقرب إلى أرواحنا حقيقةً تفوق خيالنا.

﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾؛ لأن النفس تثوق إلى السكن بعد طول الرحلة. كم سكن الإنسان في الدنيا ولم يسكن قلبه، وكم امتلك بيتاً واسعاً وظل داخله مضطرباً! أما مساكن الجنة فطيبة في ذاتها، وطيبة في جوارها، وطيبة بخلوها من الخوف والحزن والفقد، وطيبة قبل كل ذلك برضوان الله. وهي ﴿فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾، أي إقامة وثبات، فلا ترحال بعدها، ولا إخراج، ولا موت يطرُق الأبواب، ولا شيخوخة تسلل إلى الوجوه.

﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. لا ما يسميه الناس فوزاً من مال يزول، أو منصب ينتهي، أو شهرة تتطفي، أو غلبة يعقبها موت. الفوز العظيم أن تنجو من النار، وتُغفر ذنوبك، وتدخل الجنة، ويطمئن قلبك إلى أن النعمة لن تُسلب. وكل فوز لا ينتهي بصاحبه إلى هذا الفوز قابل لأن يكون خسارة مقنّعة، وكل خسارة في الدنيا تقود إليه فهي في الحقيقة مرحلة من الربح.

الآية الثالثة عشرة: البشرى التي تلامس حاجة القلب في الدنيا
﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

بعد المغفرة والجنات يذكر الله نعمة أخرى يعلم أن النفوس تحبها: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾. ويا لرحمة القرآن بالنفس البشرية؛ لم يوجعها على حب النصر، ولم يطالبها بأن تكون مجردة من كل تطلع إلى ثمرة عاجلة، بل اعترف بهذا الحب ووجهه. المؤمن يحب أن يرى الحق عزيزاً، والمستضعف محرراً، والباطل منكسراً، وأن تثمر التضحيات في حياته قبل آخرته، وهذا حب مشروع ما دام تابعاً لمحبة الله لا بديلاً عنها.

﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ﴾، فنسب النصر إلى مصدره كيلا يسكر المنتصر بأسبابه. نعم، يعدّ القوة، ويحسن التخطيط، ويجمع الصف، لكنه يعلم أن الأسباب أبواب، وأن الفتح من الله. كم من قوة هُزمت لأنها عبدت قوتها، وكم من فئة قليلة انتصرت حين صدقت مع ربها! ونسبة النصر إلى الله لا تعني إهمال السنن؛ لأن الذي ينصر هو الذي أمر بالإعداد، وإنما تعني ألا تتحول الوسيلة إلى معبود، وألا يظن الإنسان أن حساباته أحاطت بالقدر.

﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾، والقرب يرى بعين الوعد لا بعين القلق. قد تطول على الإنسان أيام الانتظار، لكن ما كان آتياً بوعد الله قريب، وكل الدنيا قصيرة إذا قيست بالآخرة. والفتح أوسع من انتصار عسكري؛ فقد يكون فتح أرض، أو فتح قلوب، أو فتح باب للدعوة، أو كشف كرب عن المؤمنين، والمقام يحتمل ما يحققه الله من ظهور لدينه ونصر لأوليائه. غير أن المؤمن لا يحدد لله صورة النصر ثم يسيء الظن إن جاءت الحكمة على غير ما رسم؛ فهو يطلب ويعمل ويستبشر، ويعلم أن الله يرى المشهد كاملاً.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فالإيمان أهلٌ للبشرى حتى في زمن الحصار. والبشارة ليست تخديراً، بل طاقة ثبات؛ إنها تقول للمؤمن إن الليل ليس صاحب الكلمة الأخيرة، وإن الدم لا يضيع عند الله، وإن البذرة المدفونة في الأرض لا تعني موت الربيع. وحين يحمل المؤمن هذه البشرى لا ينكر الألم، لكنه يمنع من التحول إلى يأس، ولا يغمض عينه عن الواقع، لكنه يرفض أن يجعل الواقع إلهاً ينسخ وعد الله.

الآية الرابعة عشرة: السؤال الأخير الذي يضع القارئ داخل السورة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنْتُ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾

تختتم السورة ببدء لا يسمح للقارئ بالبقاء متفرجاً: ﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾. والله غني عن نصره الخلق، وإنما المعنى أن تنصروا دينه ورسله وحقه، وأن تتقوا في الجانب الذي يحبه. وشرف الإضافة هائل، فأن تكون نصير فكرة بشرية منزلة، أما أن تكون من أنصار الله فذلك أن تخرج حياتك من صغر المصالح إلى سعة الرسالة، وأن يصبح لك موضع في الصراع الأبدي بين الهدى والضلال.

﴿كُونُوا﴾ ليست لحظة حماس، بل صيرورة وهوية؛ أي اجعلوا النصره وصفاً مستقراً فيكم. انصروا الله في أنفسكم حين ينازعكم الهوى أمره، وانصروه في بيوتكم بإقامة الحق والرحمة، وانصروه في كلماتكم فلا تجعلوها جسراً للكذب، وانصروه في أموالكم، وفي علمكم، وفي مواقفكم، وفي دفاعكم عن المظلوم. وليس نصر الدين دائماً مشهداً ضخماً؛ قد يكون كلمة حق في موضع الخوف، أو تعليم جاهل، أو تربية طفل، أو إغاثة منكوب، أو صبراً على ثغر لا يعرف الناس اسم صاحبه.

ثم تستحضر السورة عيسى ابن مريم مرة أخرى: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾. أي من يعينني في الطريق الموصل إلى الله وفي نصره دعوته؟ إنه سؤال يفرز القلوب؛ فالجموع تحب الأنبياء بعد أن يصير جهم آمناً في صفحات التاريخ، لكن السؤال الحقيقي كان يوم وقف الرسول وحيداً أمام كلفة الطريق: من أنصاري؟ وهناك ظهر الحواريون، الصفوة الذين أخلصوا ولّبوا النداء.

﴿قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾. لم يقولوا: نحن المعجبون بعيسى، مع أن محبتهم له عظيمة، بل تجاوزوا الشخص إلى الرسالة: أنصار الله. وهكذا تتضج الجماعة المؤمنة حين تحب قادتها وعلماءها ودعاتها داخل حب الحق، لا حين تجعل الأشخاص غاية. الأشخاص يمضون، والرسالة تبقى، ومن نصر شخصاً لأنه يوصله إلى الله ثبت بعد موته، أما من تعلق بالشخص لذاته فقد تضيع وجهته إذا غاب.

ثم تعرض الآية انقسام الناس: ﴿فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾. هكذا يفعل الوحي حين يدخل المجتمع: يكشف ما في القلوب، فلا يبقى الجميع في المنطقة الرمادية. طائفة تقبل أن تدفع ثمن الحقيقة، وطائفة تخاف على موروثها أو مصالحها فتردها. وليس انقسام الناس دليلاً على غموض الحق دائماً، فقد تكون الشمس طالعة ثم يختلف الناس لأن بعضهم فتح نافذته وبعضهم أغلقها.

وتأتي الخاتمة بالفعل الإلهي: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾. التأيد من الله، لكنه جاء للذين آمنوا ونصروا، لا للقاعدين الذين اكتفوا بالأمان. والظهور ثمرة طريق طويل من الصدق والصبر والثبات. وقد يظهر الحق بالحجة قبل القوة، وتبقى كلمة المؤمنين بعد زوال مضطهديهم، ويتحقق لهم من الغلبة ما يقدره الله في التاريخ. والمهم أن السورة تضع البداية في أيديهم: كونوا أنصار الله، ثم تجعل النهاية بيده: فأيدنا. وبين «كونوا» و«أيدنا» تمتد رحلة التكليف والتوكل، تعمل أنت بما أمرك، ويأتي التأيد من حيث يشاء.

هكذا تنتهي سورة الصف، ولكن سؤالها لا ينتهي. بدأت بكون يسبح لله، ثم وضعت الإنسان أمام تناقضه، ثم أرته صفًا يحبه الله، وحذرته من أذى الرسل والزيف بعد العلم، وربطته بموكب موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وطمأنته إلى أن الأفواه لن تطفئ نور الله، ثم دعت إلى تجارة النجاة، وأرته ربحها في المغفرة والجنة والنصر، وانتهت به واقعًا أمام سؤال النصرة.

إنها سورة بناء الإرادة المؤمنة؛ إرادة لا تكتفي بأن تعرف، بل تفعل، ولا تكتفي بأن تحب الحق، بل تنصره، ولا تكتفي بأن تقف، بل تنتظم في صف، ولا تجعل الصف عصبيةً للأسماء، بل بنيانًا في سبيل الله. وهي تكشف أن أخطر هزائم الدعوات قد تبدأ من داخل أصحابها: من كلمة لا يصدقها عمل، ومن قلب زاغ ثم أصر، ومن صف اخترقته الأنانية، ومن نصرة تحولت إلى طلب للمجد الشخصي. وفي المقابل تكشف أن النصر يبدأ قبل الميدان: يبدأ حين ينتصر الإنسان على كذبه الداخلي، وحين يردم الهوة بين لسانه وجوارحه، وحين يضع لبنته في موضعها ويكف عن منازعة اللبنة الأخرى.

وحين نخرج من السورة ينبغي ألا يكون سؤالنا: أين أنصار الله؟ بل: ما الذي يعني أن أكون منهم؟ وألا نقول: لماذا لا تنتظم الأمة صفًا؟ قبل أن نسأل: كم ثغرة أحدثها كبريائي في الصف الذي أنا فيه؟ وألا نتغنى بالتجارة مع الله ثم نمسك بأموالنا وأنفسنا عن كل بذل، ولا ننتظر الفتح القريب ونحن لم نصلح بعد موضعنا في البنيان. فالسورة لا تطلب منا ضيغًا جديدًا؛ لقد حذرنا من فائض القول، وإنما تطلب كلمة لها جسد، وإيمانًا له أثر، ومحبة لها ثمن، وصفًا تستند لبناته بعضها إلى بعض.

يا رب، إنّنا قلنا كثيراً ولم نفعل من الخير مثل ما قلنا، ووعدنا ثم ضعفت عزائمنا، وأحببنا أن نكون من أهل نصرتك ثم شغلتنا نفوسنا؛ فاغفر لنا فجوة القول والعمل، وطهر كلماتنا من الادعاء، وأعمالنا من الرياء، وصفوفنا من نزغات الهوى، واجعلنا لبنات صادقة في بنيان الحق، لا نطلب موضعاً تراه العيون، بل موضعاً تحبه أنت. واجعلنا ممن آمنوا بك ورسولك، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيلك على بصيرة وعدل، فغفرت لهم ذنوبهم، وأدخلتهم جنات عدن، وأكرمهم بنصرك، وكتبتهم في زمرة الذين إذا سمعوا النداء: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾، لم يترددوا، ولم يختبئوا خلف الكلمات، بل قالوا بقلوبهم وأعمالهم قبل ألسنتهم: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾.